

كيف زيف اليهود الكتب المقدسة

موسى الزعبي

لو استطاع الناس تنظيم شؤون حياتهم وفقاً لخطّة مرسومة ، أو كان الحظ موافقاً لهم على الدوام ، لما وقعوا فريسة للخرافة ، ولكننا كثيراً ما نراهم وقد وقعوا في مازق يبلغ من الحرج حداً لا يستطيعون منه خلاصاً ، ولما كانوا يتقبلون بلا هوادة بين الخوف والرجاء لحرصهم الشديد على النعم الزائلة التي يجلبها القدر ، فانهم يميلون دائماً أشد الميل إلى التصديق الساذج . فاذا ساورهم الشك في شيء حركهم أقل دافع إلى هذا الجانب أو ذاك ، لا سيما عندما يكون الدافع لهم هو الخوف أو الرجاء ، أما في لحظات الثقة بالنفس فيركبهم الزهو والغرور ، وهذا أمر لا يجهله أحد ،

وإن كان معظم الناس لا يطبقونه على أنفسهم . ولا يوجد شخص واحد عاش بين الناس إلا لاحظ أن معظمهم ، حتى أقلهم خبرة ، يفيضون في أيام الرخاء حكمة ، حتى أن مجرد توجيه النصيحة لهم يعد إهانة . أما في وقت الشدة ، فيتغير كل شيء ، إذ لا يعرفون ممن يطلبون النصيحة وهم يلتمسون منه من كل من يصادفهم ، ويعملون بأشد النصائح بطلاناً وتناقضاً وزيفاً . من ناحية أخرى ، تكفي أقل الدوافع شأناً لتثير فيهم الخوف أو الرجاء . ففي حالة الخوف مثلاً ، إذ أثارت فيهم حادثة ما ذكرى سارة أو مؤلمة ، فانهم يرون فيها علامة للنتيجة سارة أو مؤلمة ، لهذا السبب فانهم يتحدثون عن الفأل الحسن أو السيئ ، مع أن التجربة

قد كذبتة مئات المرات • وإذا أثار منظر غير مألوف دهشتهم ، فانهم يظنون أنهم شهدوا إحدى الخوارق •

ولما كان الخوف سبب الخرافة ، وليس سببها فكرة غامضة عن الألوهية موجودة في أذهان البشر ، فاننا نلاحظ أن كل الناس ، يميلون إليها بطبيعتهم ، كما نلاحظ أنها لا بد أن تكون متغيرة ومتقلبة إلى أقصى حد ، شأنها في ذلك شأن معظم أوهام النفس ودوافع الجنون. ونلاحظ بالتالي أن الخرافة لا تعتمد إلا على التمني والحقد والغضب والخداع ، لأنها لا تقوم على العقل ، بل تقوم على الانفعال وحده • وعلى ذلك فكلما استسلم الناس بسهولة إلى جميع أنواع الخرافات ، صعب عليهم التمسك الدائم بواحدة منها • ولما كان عامة الناس أشقياء دائماً فانهم لا يصلون أبداً إلى حالة رضا دائمة ، ولا يجدون تخفيفاً لشقائهم إلا بأوهام جديدة ، يسعدون بها لأنها لم تخدعهم بعد • وقد كان هذا القلب سبباً في اضطرابات عديدة وحروب بشعة ، يتضح إذن ، وكما لاحظ كوينتوس كوريتوس بدقة ، أن الخرافة ، هي أكثر الوسائل فاعلية لحكم العامة ، ولذلك كان من السهل ، باسم الدين ، دفع العامة ، تارة إلى عبادة الحكام كأنهم آلهة ، ودفعهم تارة أخرى إلى كراهيتهم ، وكأنه طامة كبرى على شعوبهم • وتجنباً لهذا الشر ، اتجهت العناية ، بحرص شديد ، إلى تجميل الدين ، بالشعائر والمراسم التي تزيد من أهميته ، وتضمن له احتراماً دائماً بين المؤمنين •

من جهة أخرى ، إن سعادة الفرد ونعيمه الحقيقي ، لا يكونان إلا في تمتعه بالخير ، لا في فخره بأنه وحده الذي يتمتع به مع استبعاد الآخرين • ومن يظن أنه حصل على سعادة أكبر ، لأنه وحده في حالة طيبة ، على حين أن الآخرين ، ليسوا كذلك ، أو لأنه يتمتع بسعادة أكبر ، أو لكونه أسعد حظاً من الآخرين ، ومثل هذا الشخص ، يجهل السعادة والنعيم الحقيقي • فالفرح الذي يشعر به المرء نتيجة لاعتقاده أنه أسقى من الآخرين ، إن لم يكن شعوراً طفولياً ، فانه لا ينشأ إلا من الحسد أو القلب الحاقد • مثال ذلك ، أن الهناء الحقيقي وسعادة الانسان لا يكونان إلا في الحكمة وحدها ومعرفة ما هو حق •

ولما كان حب الله هو السعادة القصوى والغاية الأخيرة للأفعال الانسانية ، فان من يحب الله يكون هو المطيع حقاً للقانون الالهي، لا عن خوف أو رجاء ، بل عن معرفة الله ، هو يعلم أن معرفة الله وحبها هما الخير الأقصى، وهو ما يدركه الانسان بذهنه لا ببدنه . أما القانون الانساني ، فانه يهدف الى غاية أخرى ، وهي المحافظة على سلامة الانسان وأمن الدولة التي يعيش فيها ، الا اذا كان الوحي هو الذي شرعه ، لأن معنى ذلك هو ارجاع الأشياء لله .

وإذا عرفنا طبيعة الله ، وأن إرادته وذهنه شيء واحد ، عرفنا أن أوامر الله بالتحريم أو بالتحليل حقائق أبدية ، تتضمن ضرورة أبدية . لقد أوحى الله لآدم الشر الذي سيكون النتيجة الضرورية لفعله ، ولكنه لم يوح إليه ضرورة نتيجة هذا الشر ، أي أن آدم لم يدرك الوحي كحقيقة أبدية ، بل أدركه كقانون أو كقاعدة ، تقرر وجوب ثواب أو عقاب ، نتيجة لفعل ما ، وليس لطبيعة الفعل نفسه . ونظراً لنقص معرفة آدم أصبح الوحي قانوناً .

وقد كان آدم - وهو أول من كشف له الله عن نفسه - يجهل أن الله حاضر في كل مكان ، وأنه بكل شيء عليم ، فقد أخفى نفسه بالفعل عن الله ، وحاول في حضوره الاعتذار عن خطيئته ، وكأنه أمام إنسان مثله ، وإذن فقد كان كشف الله له عن نفسه ، بطريقة على مستوى فهمه ، أعني كموجود لا يوجد في كل مكان ، في الوقت نفسه ، ويجهل خطيئة آدم والمكان الذي يوجد فيه . لقد سمع آدم بالفعل ، أو ظن أنه سمع الله سائراً في الحديقة ، وظن أن الله ناداه وسأله عن مكانه ، وإن الله ، بعد أن لحظ اضطرابه سأله إن كان قد أكل الفاكهة من الشجرة المحرمة . فآدم لم يعلم من صفات الله ، إلا أنه خالق كل شيء .

وإن كل ما يمكن أن يكون موضوعاً لرغبة صادقة منا ، يرتد إلى واحد من الموضوعات الرئيسة الثلاثة : معرفة الأشياء بعلمها الأولي ، والسيطرة على انفعالاتنا ، أي الحصول على الفضيلة ، وأخيراً ، العيش في سلام مع جسم سليم . وتوجد الوسائل التي تستخدم مباشرة في الحصول على الموضوعين الأولين - والتي يمكن اعتبارها عللاً قريبة وفاعلة لهما - في الطبيعة الانسانية ، نفسها ، لذلك ، كان علينا أن نسلّم دون أدنى تحفظ بأن هاتين الهبتين لا تخصصان أمة دون أخرى، بل كانتا على الدوام شائعتين لدى الجنس البشري كله . ومن

يرى خلاف ذلك ، يفترض أن الله قد خلق سلفاً أنواعاً عديدة من الجنس البشري . أما الوسائل التي يتبعها الانسان ليعيش في أمان وليحافظ على جسده ، فانها توجد أساساً في الأشياء الخارجية ، لذلك نسميها هبات الحظ ، لأنها تعتمد إلى حد كبير على مسار العمل الخارجية ، وهو المسار الذي لا نعلمه ، بحيث يكون الأبله سعيداً أو شقيماً في هذا الصدد كالحكيم . ومع ذلك فلنكي يعيش الانسان في أمان ، ولكي يتجنب هجمات البشر والوحوش على السواء ، فان حكم الحياة البشرية واليقظة يفيدانه فائدة جمة ، وقد أثبت العقل والتجربة ، أن أيقن الوسائل لذلك هو تكوين مجتمع يقوم على القوانين السليمة ، وشغل منطقة معينة من العالم ، واتحاد قوى الجميع في الكيان الاجتماعي نفسه . على أنه لابد من أجل تكوين مجتمع والمحافظة عليه ، من اكتساب تركيب خاص ، ومن يقظة غير عادية . وعلى ذلك ، فان المجتمع الذي يرسى دعائمه ويحكمه أناس على قدر كبير من الدراية واليقظة ، يكون أكثر أماناً واستقراراً ، وأقل خضوعاً للحظ ، أما المجتمع الذي يتكون من أناس أجلاف ، فانه يكون أكثر اعتماداً على الحظ ، وأقل استقراراً ، فاذا كان قد بقي مدة طويلة مع وجود ما فيه ، فان هذا يرجع إلى حكم مجتمع آخر له ، لا إلى حكمه الخاص ، وإذا خرج سالماً من المخاطر الكبيرة وازدهرت أحواله ، فانه لا يستطيع إلا أن يقدر حكم الله وأن يعظمه لأنه نال كل شيء ، على غير انتظار ، ودون تدبير سابق ، وهو لا يمكن اعتباره أمراً معجزاً .

ويطلق لفظ القانون مأخوذاً بمعناه المطلق ، على كل حالة يخضع فيها الأفراد منظوراً اليهم كل على حدة ، سواء أكان الأمر متعلقاً بمجموع الموجودات ، أم ببعض الموجودات المنتمية إلى النوع نفسه ، ويتوقف القانون ، اما على ضرورة طبيعية عندما يصدر بالضرورة من طبيعة الشيء ذاتها ، وإما من تعريفه ، ويكون معتمداً على القرار الانساني ، عندما يفرضه البشر على أنفسهم ، وعلى الآخرين ، ليجعلوا الحياة أكثر أمناً وأكثر يسراً ، أو لأسباب أخرى .

على أن لفظ القانون لا يطلق على الأشياء الطبيعية إلا مجازاً ، ونحن عادة لا نقصد بالقانون إلا أمراً من الأوامر ، يستطيع الناس تنفيذه أو إهماله ، على أن يكون مفهوماً أنه يحصر قدرة الانسان في حدود معينة ، تستطيع هذه القدرة مع ذلك

أن تتعداها ، ولكنه لا يأمر بشي يفوق قواها . علينا إذن - أن نعرف القانون تعريفاً أخص بأنه قاعدة للحياة يفرضها الانسان على نفسه ، أو على الآخرين من أجل غاية . على أنه لما كانت غاية القوانين الحقيقية لا تتضح إلا لعدد قليل ، ولما كان معظم الناس تقريباً لا يقدرّون على إدراكها، مع أن حياتهم تسير بدورها وفقاً للعقل ، فقد وضع المشرعون بحكمة، غاية مختلفة تماماً عن الغاية التي تنشأ عن طبيعة القوانين ، فهم يبشرون المدافعين عن القانون بما يفضلّه العامة على كل ما عداه ، وينذرون من يمزقونه بما يرهبه العامة أكثر من غيره . وعلى هذا النحو ، حاولوا السيطرة على العامة بقدر الامكان ، كما يسيطر الانسان على الحصان بالجام . ومن هنا ينشأ ذلك التصور الشائع للقانون على أنه قاعدة للحياة ، فرضها بعض الناس على البعض الآخر ، حتى إننا لنقول في لغتنا الشائعة عمن يطيعون القوانين إنهم يعيشون تحت سلطان القانون ، ويبدون عبيداً له ، وإنه لمن الصحيح حقاً ، أن من يعطي كل ذي حق حقه ، خوفاً من المشنقة ، يفعل ذلك بأمر الآخرين ، ويضطر إليه خوفاً مما قد يلحق به من ضرر ، فلا يمكن أن نعتبره عادلاً . أما من يعطي كل ذي حق حقه ، لأنه يعلم السبب الحقيقي لوضع القوانين وضرورتها ، فانه يفعل باتفاق تام مع نفسه وبمحض مشيئته ، لا بمشيئة الآخرين ، ولذلك كان من حقه أن نسميه عادلاً .

تقودنا هذه المقدمة المطولة الى الحديث عما طرأ على الكتب المقدسة لدى اليهود من تشويه ، مستندين الى كثير من الأفكار التي فندها سبينوزا وتحليلاته واستخلاص أبعاد نتائجها . وينبغي قبل كل شيء أن نتمسك بقاعدة تعصمنا من الزلل ، وهي أن ما أوحاه الله ، هو اليقين الذي لا يعدله يقين أي شيء آخر . فإذا بدأ أن ومضة من ومضات العقل تشير إلينا بشيء يخالف ذلك ، وجب أن نخضع حكمنا لما يجيء من عند الله . وانه ينبغي من جهة أخرى أن نؤمن بالكتب المقدسة ، لأنها جاءت من عند الله . مع ذلك ، فهذا لا يمنع أيضاً أن نعتقد فيما أوحاه الله ، كما نعتقد في معرفة أكثر يقيناً ، لأن الايمان الذي سيتضمن دائماً أشياء غامضة ، ليس فعلاً للعقل بل فعلاً للإرادة .

ويمكن إصدار الحكم النقدي على صحة النص التاريخية ، ويكون لدينا إذن نقد النصوص ، لتقارير أخطاء النساخ والزيادات المقصودة للرواة ومحاولة العثور على النص الأصلي بلا زيادة ولا نقصان ، ثم يأتي النقد الأدبي لتحويل النص إلى نوعه الأدبي ، الشعر ، القصة ، الملحمة ، الرواية ، الأسطورة ،

الرمز ، المثل . أخيراً يأتي النقد التاريخي لحسم مشكلة الصحة التاريخية ، التي تشمل أولاً إثبات صحة نسبة النص إلى المؤلف المنسوب إليه ، وهو ما سماه النقاد المحدثون نقد المصادر ، وهو ما سماه علماء الحديث قديماً « السند » . وثانياً إثبات تكامل النص من حيث المضمون ، وما سماه علماء النقد المحدثون ، نقد إعادة تكوين النص ، وما سماه علماء الحديث قديماً « المتن » .

فالتوراة خضعت لترجمات متعددة ، وكتاب متعددين ، فقد ترجمت من العبرية إلى اليونانية المعروفة باسم السبعينية ، كما جرى وضع عدة شروح لتأويل النصوص ثم ظهرت نسختان لاتينيتان الأولى أوربية ، والثانية إفريقية ، وفي العصور الوسطى المتأخرة ، قام الماسوريون ، وهو المكلفون بالمحافظة على نصوص العهد القديم ، بادخال النقط وبعض الحروف على النص ، وقاموا ببعض الشروح الحرفية .

ثم يقوم سبينوزا بتحليل أسفار التوراة سفرًا سفرًا ، مبيناً نصيب كل منها ، من الصحة التاريخية . ويؤكد أن الأسفار الخمسة لم يكتبها النبي موسى ، حتى أن ابن عزرا ، وهو العالم بذلك ، لم يجرؤ على الجهار بذلك . كتب الأسفار الخمسة ، إنسان آخر ، عاش بعد النبي موسى بمدة طويلة . وذلك لبعض الأسباب التي يذكرها ابن عزرا ، مثل :

أ - لم يكتب النبي موسى مقدمة سفر التثنية ، لأنه لم يعبر نهر الأردن .
ب - كان سفر موسى مكتوباً على حائط المعبد الذي لم يتجاوز اثني عشر حجراً ، أي أن السفر كان أصغر بكثير مما لدينا الآن .

ج - قيل في سفر التثنية : « وقد كتب موسى التوراة » ، ولا يمكن أن يقول موسى ذلك ، إن كان هو كاتبها .

د - في سفر التكوين ، يعلق الكاتب قائلاً : « وكان الكنعانيون في هذه الأرض » ، مما يدل على أن الوضع قد تغير وقت تدوين الكاتب هذا السفر ، أي بعد موت موسى وطرده الكنعانيين ، وبذلك ، لا يكون موسى هو الراوي .

هـ - في سفر التكوين ، سمي « جبل موريا » جبل الله ، ولم يسمع بهذا الاسم ، إلا بعد بناء المعبد ، وهو ما تم بعد عصر موسى .

و - في سفر التثنية وضعت بعض الآيات في قصة أوج ، توحى بأن الرواية ، كتبت بعد موت موسى بمدة طويلة ، إذ يروي المؤلف أشياء حدثت منذ زمن بعيد .

ثم يضيف سبينوزا إلى ملحوظات ابن عزرا هذه ملحوظات أخرى :

- أ - كتابة الأسفار بضمير الغائب ، لا بضمير المتكلم .
- ب - مقارنة موت موسى ولحده والحزن عليه بين الأنبياء التاليين له .
- ج - تسمية بعض الأماكن بأسماء مختلفة عما كانت عليه في عصر موسى .
- د - استمزار الرواية في الزمان حتى بعد موت موسى .

وقد كان موسى يقرأ «سفر العهد» على الناس ، هذا السفر الذي أملاه الله عليه في جلسة قصيرة ، مما يدل على أن ما كتبه موسى أقل بكثير مما لدينا الآن . ثم شرح هذا السفر الأول ، ودون شرحه في سفر « شريعة الله » . ثم أضاف إليه يشوع شرحاً آخر . وقد ضاع هذا السفر الذي يجمع بين سفر موسى وسفر يشوع . أما السفر الأصلي فقد أدخل في الأسفار الخمسة التي لدينا الآن ولا يمكن التمييز بينهما .

ولم يكتب يشوع السفر المسمى باسمه ، بل كتبه إنسان آخر ، أراد كتابة سيرته ، وإثبات فضله وشهرته . وتمت الرواية إلى ما بعد موته بقرون عدة . ويوجد جزء من هذه الرواية في سفر القضاة ، مما يدل على أنه كانت هناك روايات من قبل ، ضمت إلى العهد القديم . كما لم يكتب صموئيل سفره ، لأن الرواية تمتد إلى ما بعد موته بقرون عديدة . وقد كتب هذه الأسفار كلها مؤلف واحد ، أراد أن يقص تاريخ العبرانيين منذ نشأتهم حتى تخريب المدينة الأولى . خلاصة القول ، إن أسفار الكتاب المقدس لم يكتبها مؤلف واحد ، في عصر واحد ، لجمهور واحد ، بل كتبها مؤلفون كثيرون في عصور متعاقبة لجمهور مختلف في المزاج والتكوين ، ويمتد التدوين إلى ألفي عام ، وربما أكثر من ذلك ، ويذكر ابن تيمية عدة نسخ من التوراة أشهرها نسخة السامرة «الجواب الصحيح» ج ١ ص (٢٩٣ - ٢٩٤) ، كذلك ابن حزم : الفصل ج ١ ص (٩٢) ،

والتوراة السامرية ، هي التوراة التي كانت مستعملة لدى السامريين والتي كانت مدونة بالعبرية بحروف مستمدة من الفينيقية ، ويحتوي النص ، على بعض الأجزاء المختلفة عن الماسور ، وعن السبعينية . ومع أن الجماعة السامرية تعدد النص بالقرن الأول الميلادي ، إلا أنه يبدو تالياً على هذا الزمان ، وهو خال من التنقيط والتشكيل . فعندما انفصل السامريون عن اليهود في القرن الرابع قبل الميلاد اعترفوا بالتوراة « الأسفار الخمسة » وتدل مخطوطات قمران على أنها من المجموعة نفسها السامرية لوجود شبه كثير بينهما .

ويمكن ابداء ملاحظات أخرى متعددة أكثر خطورة على هذه الأسفار ، فمثلاً : لا يتحدث الكتاب عن موسى بضمير الغائب فحسب ، وإنما يعطي عنه شهادات عديدة ، مثل تحدث الله مع موسى ، كان الله مع موسى وجهاً لوجه ، وكان موسى رجلاً حليماً جداً ، أكثر من جميع الناس « العدد ٣ : ١٣ » فسخط موسى على وكلاء الحبيش (العدد ٣١ : ١٤) ، موسى رجل الله « التثنية ١٣ : ١ » ، لقد مات موسى خادماً لله ، ولم يقم من بعد نبي في إسرائيل كموسى ، وعلى العكس ، يتحدث موسى ويقص أفعاله بضمير المتكلم في التثنية ، التي كتبت فيها الشريعة التي شرحها موسى للشعب والتي كتبها بنفسه ، فيقول كلمني الرب (التثنية ١/٢) و (١٧ : ١٠ الخ . الا في آخر السفر ، حيث يستمر المؤرخ بعد أن نقل أقوال موسى ، ويحكي في روايته كيف أعطى موسى الشعب هذه الشريعة « التي شرحها » كتابه ، ثم أعطاهم تحذيراً أخيراً ، وبعد ذلك انتهت حياته .

كل ذلك ، أعني طريقة الكلام والشواهد ، ومجموع نصوص القصة ، كلها يدعو إلى الاعتقاد بأن موسى لم يكتب هذه الأسفار بل كتبها شخص آخر . كما يجب أن نتذكر أيضاً ، أن هذه الرواية لا تقص فقط موت موسى ودفنه وحزن الأيام الثلاثين ، بل تروي أيضاً أنه فاق جميع أنبياء زمانه ، إذا قورن بالأنبياء الذين عاشوا بعده : ولم يقم من بعد نبي في إسرائيل كموسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه (التثنية ٣٤ : ١ فهذه شهادة لم يكن من الممكن أن يدلي بها موسى نفسه ، أو شخص آخر أتى بعده مباشرة ، بل شخص عاش بعده بقرون عديدة ، لا سيما أن المؤرخ استعمل صيغة الفعل الماضي : ولم يقم

من بعد نبي في اسرائيل . ويقول عن القبر : ولم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا (التثنية ٣٤/٦) . ويجب أن نذكر أيضاً ، أن بعض الأماكن لم تطلق عليها الأسماء التي عرفت بها في زمن موسى ، بل أطلقت عليه أسماء عرفت بعده بوقت طويل .

من هذه الملاحظات كلها ، يبدو واضحاً وضوح النهار ، أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة ، بل كتبها شخص عاش بعد موسى بقرون عديدة ، لكن لنبحث بمزيد من الدقة في الأسفار التي كتبها موسى نفسه ، والمذكورة في الأسفار الخمسة ، فمن الثابت ، أولاً ، في «الخروج» (١٧ : ١٤) وقال الرب لموسى اكتب هذا ذاكرة في الكتاب واتله على يشوع ، فاني سأمحو ذكر عماليق من تحت السماء ، لكن لا يقول لنا هذا الاصحاح نفسه أي سفر كتب ، بل ترد في «العدد» (٢١ : ١٤) إشارة إلى سفر يسمى حروب الرب ، يحتوي ولا شك على قصة الحرب ضد عماليق ، وعلى كل أعمال إقامة المعسكرات « التي يشهد مؤلف الأسفار الخمسة في (العدد ٢٣:٢) بأن موسى قد عرضها كتابة » . كما جاء في « الخروج » (٢١ : ١٤) أن هناك سفرأ آخر ، يعرف باسم «سفر العهد» ، « وتعني كلمة سفر بالعبرية رسالة أو ورقة » ، قرأه موسى أمام جماعته ، عندما عقدوا عهداً مع الله ، ولا يحتوي هذا السفر إلا على أشياء قليلة ، أي أنه لا يحتوي إلا على شرائع الله ووصاياه الموجودة في «الخروج» في الاصحاح (٢٠) الآية (٢٢) ، حتى الاصحاح (٢٤) . ولا يمكن أن ينكر ذلك من يقرأ هذا الاصحاح المذكور بشيء من الفهم السليم ، ودون تحيز . ففيه يروي أنه بمجرد أن عرف موسى رأي الشعب في العهد المبرم مع الله ، كتب على التوكلمات الله ووصاياه ، ثم قرأ أمام المجمع العام للشعب شروط العهد في الصباح بعد إقامة بعض الطقوس . وبعد هذه القراءة دخل الناس في هذا العهد بمحض إرادتهم ورضاهم بعد أن عرفوا هذه الشروط ، ونظراً لضيق الوقت الذي استغرقته كتابة العهد المبرم ، وكذلك نظراً إلى طبيعة هذا العهد - كان حتماً ألا يحتوي هذا السفر أكثر مما قيل الآن . أخيراً من الثابت أن موسى قد شرح جميع الشرائع التي سنّها في السنة الأربعين بعد الخروج من مصر . كما ورد في التثنية (١ : ٥) ، وأخذ من الناس وعداً جديداً بأن يظلوا خاضعين لهذه الشرائع

(التثنية ٢٩: ١٤)، ثم كتب سفرًا يحتوي على هذه الشرائع التي تشرح هذا العهد الجديد ، أيضاً التثنية (٣١ : ٩) ، وقد سمي هذا السفر سفر تورااة الله ، وقد أضاف إليه يشوع بعد ذلك بمدة طويلة ، رواية العهد الذي قطعه الناس على أنفسهم من جديد في أيامه ، وهو ثالث عهد يقيمونه مع الله ، كما ورد في يشوع (٢٤ : ٢٥ - ٢٦) . ولما لم يكن لدينا أي سفر يحتوي في الوقت نفسه ، على عهد موسى وعهد يشوع ، فيجب أن نعترف ضرورة بأن هذا السفر قد فقد . وإلا فلنهد مع يوناتان الشارح الكلداني - « أي الترجمة إلى اللغة الآرامية للنص الأصلي الموجود في التوراة المتعددة اللغات ، مع النص العبري » - الذي يتعسف في تأويل كلمات الكتاب حسب هواه . فلقد فضل هذا المترجم بعد أن أقلقته هذه الصعوبة ، أن يحرف الكتاب على أن يعترف بجهله : فهو يترجم إلى الكلدانية هذه الكلمات من سفر يشوع (٢٤ : ٢٦) : وكتب يشوع هذا الكلام في سفر تورااة الله بقوله : وكتب يشوع هذا الكلام وحفظه مع سفر تورااة الله ، فماذا يمكن العمل مع من لا يرون إلا ما يوافق هواهم ؟ ويمكن التساؤل : أليس هذا إنكاراً للكتاب نفسه ، وابتداءً لكتاب جديد من وضعه هو ؟ نستنتج إذن أن سفر تورااة الله هذا الذي كتبه موسى لم يكن من الأسفار الخمسة ، بل كان سفرًا مختلفًا كل الاختلاف ، أدخله مؤلف الأسفار الخمسة في سفره في المكان الذي ارتأه ، ويظهر ذلك بوضوح تام مما سبق ومما سيأتي - وأريد أن أقول إنه عندما يروي لنا في النص السابق ذكره في التثنية ، أن موسى كتب سفر التوراة ، يضيف المؤرخ أن موسى أعطاه الأحرار ثم طلب إليهم قراءته أمام الشعب في أوقات معلومة ، وهذا يدل على أن السفر كان أقل حجمًا بكثير من الأسفار الخمسة ، إذ كان من الممكن قراءته كله في مجمع عام ، بحيث يفهمه الجميع ، ولا ننس أنه ، من بين جميع الأسفار التي كتبها موسى ، لم يأمر إلا بالمحافظة دينيًا على سفر واحد ، وبالحرص على الإبقاء عليه ، وهو سفر العهد الثاني والنشيد ، - الذي كتبه بعد ذلك كي يعلمه لجميع أفراد الشعب - فبالنسبة إلى العهد الأول ، كان الحاضرون ، وحدهم هم الملتزمين به ، أما العهد الثاني ، فكان ملزمًا للخلق أيضًا (التثنية ٢٩ : ١٤ - ١٥) - وليس معكم وحدكم أنا قاطع هذا العهد ، وهذا القسم ، بل مع من هو واقف معنا اليوم بحضرة الرب إلهنا ومع من ليس هنا اليوم معنا - لذلك أمر بالمحافظة دينيًا على سفر العهد

الثاني للأجيال التالية ، ولما لم يكن من الثابت أن موسى قد كتب أسفاراً أخرى سوى هذه الأسفار ، ولم يوص بنفسه بالمحافظة دينياً للأجيال القادمة إلا على سفر التوراة الصغير والنشيد ، وأخيراً ، لما كانت توجد نصوص كثيرة في الأسفار الخمسة ، لا يمكن أن يكون موسى كاتبها ، فإن أحداً لا يستطيع أن يؤكد ، عن حق ، أن موسى هو مؤلف الأسفار الخمسة ، بل على العكس ، يكذب العقل هذه النسبة وقد يسأل سائل ، هل كتب موسى ، زيادة على هذين النصين ، الشرائع التي أعطيت له في الوحي الأول؟ ألم يكتب موسى طوال أربعين سنة شرائع أخرى ، سوى هذا العدد القليل الذي ذكرت أنه متضمن في سفر العهد الأول؟ وأجيب قائلاً : حتى لو تم التسليم بأنه مما يبدو متفقاً مع العقل أن يكون موسى قد كتب الشرائع في الوقت نفسه ، وفي المكان نفسه ، الذي أوحيت فيه إليه - فاني مع ذلك أنكر إمكان تأكيد ذلك لهذا السبب ، وقد أشرت من قبل أنه لا ينبغي أن نسلم في مثل هذه الحالات إلا بما يثبت ذلك الكتاب نفسه ، أو ما يستنبط كنتيجة مشروعة من الأسس التي يقوم عليها ، إذ أن الاتفاق الظاهر مع العقل ليس دليلاً .

ولأسباب مماثلة ، نقول إن سفر يشوع ، ليس من وضع يشوع نفسه ، بل إن شخصاً آخر هو الذي شهد ليشوع بأن شهرته قد طبقت آفاق الأرض - (يشوع ٦ : ٢٧) وكان الرب مع يشوع وأذاع خبره في كل الأرض - وبأنه لم يغفل شيئاً مما أوصى به موسى (يشوع ٨ : ٢٥) لم تكن كلمة من كل ما أمر به موسى لم يناد بها يشوع بحضرة كل جماعة . الخ . و « يشوع ٩ : ١٥ » وسألهم يشوع وقطع لهم عهداً على استبقائهم وخلف لهم رؤساء الجماعة . وبأنه عندما تقدمت به السن ، دعا الجميع الى المجمع ، ثم قضى نحبه ، فضلاً عن ذلك ، فإن الرواية تمتد إلى الوقائع التي حدثت بعد موته ، إذ أنه يذكر على وجه التحديد أنه بعد موته ، كان أصحابه يعظمون الله ما عاش المسنون الذين عرفوا يشوع ، ويذكر الاصحاح « ١٦ الآية ١٠ » أنهم « اي افرائيم ومنسي » لم يطردوا الكنعانيين المقيمين في بجازر (ويضيف) فأقام الكنعانيون بين افرائيم الى هذا اليوم وكانوا عبيداً يؤدون الجزية . وتوجد هذه الرواية نفسها في سفر القضاة « الاصحاح الأول » . وتدل

هذه الطريقة في الحديث باستعمال «إلى يومنا هذا» على أن من يكتب ذلك ، يتحدث عن شيء قديم للغاية . ويشبه هذا النص تماماً الآية الأخيرة من الاصحاح (١٥) الخاصة بأن يهوذا وقصة كالب في الآيات (١٤) وما بعدها من الاصحاح (٢٧) نفسه . وهناك أيضاً حادثة أخرى في الاصحاح (٢٢) ، الآية (١٠) ، يروى فيها أن سبطين ونصف أقاموا مذبحاً وراء الأردن ، وهي حادثة ، يبدو أنها وقعت بعد موت يشوع ، خاصة أن يشوع ، لم يذكر ثباتاً في القصة كلها . أخيراً ، يظهر بوضوح من الاصحاح (١٠ الآية ١٤) أن هذا السفر قد كتب بعد يشوع بقرون عديدة : إذ يعطينا الاصحاح هذه الشهادة : ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده سمع فيه الرب لصوت إنسان . فإذا كان يشوع قد كتب أي سفر ، فمن المؤكد أنه هو ذلك السفر المذكور في هذه الرواية نفسها في الاصحاح (١٠ الآية ١٣) - (يشوع ١٠ : ١٣) (فوقفت الشمس وثبت القمر ، إلى أن انتقم الشعب من أعدائهم ، وذلك مكتوب في سفر المستقيم . الخ) . أما سفر القضاة ، فلا أظن أن شخصاً سليم العقل ، يعتقد أن القضاة أنفسهم قد كتبوه ، لأن نهاية القصة كلها في الاصحاح (٢١) تبين بوضوح ، أن مؤرخاً واحداً هو الذي كتبه كله . من جهة أخرى ، فلما كان مؤلفه يكرر دائماً أنه لم يكن هناك في عصره أي ملك لإسرائيل ، فلا شك أنه لم يكتب بعد أن استولى الملوك على السلطة . أما أسفار صموئيل ، فليس هناك ما يدعو إلى التوقف عندها طويلاً ، لأن القصة تستمر بعد وفاته بوقت طويل . ومع ذلك ، فأريد أن أبين أن هذا السفر لا بد أنه قد كتب بعد صموئيل بقرون عديدة . ذلك لأن المؤرخ في السفر الأول ، الاصحاح (٩ : الآية ١) يعطي هذا التحذير في جملة اعتراضية : وكان فيما سبق ، إذا أراد الرجل من إسرائيل أن يذهب ليسأل الله يقول له : هلم نذهب إلى الرائي لأن الذي يقال له اليوم نبي ، كان يقال له قبل راء ، وأخيراً ، فإن أسفار الملوك قد تم اقتباسها - كما هو ثابت في هذه الأسفار ذاتها - من كتب حكومة سليمان « (الملوك الأول ١١ : ٤١) وأما أخبار سليمان وجميع ما عمل ووصف كلمته فهي مكتوبة في سفر أخبار سليمان » .

وإذا نظرنا الآن إلى تسلسل هذه الأسفار كلها وإلى محتواها ، رأينا

بسهولة أن الذي كتبها مؤرخ واحد - ويرى سبينوزا أن عزرا هو الذي كتب الأسفار الستة (الأسفار الخمسة بالإضافة إلى سفر يشوع) وسفر القضاة وسفر روت وسفري صموئيل وسفري الملوك . لكن هذا المؤرخ - جمع النصوص من مصادر كثيرة ولم يحاول التوفيق بينها ، من ثم أتت مضطربة متعارضة ، والواقع أن طريقة تسلسل هذه الأسفار تكفي وحدها لاثبات أنها تضم رواية لمؤرخ واحد ، فبمجرد انتهائه من قصة حياة موسى ، انتقل مباشرة إلى قصة يشوع : وحدث بعد موت موسى ، خادم الله ، أن قال الله ليشوع . الخ .

وبعد أن انتهى من قصة موت يشوع انتقل بالطريقة نفسها إلى تاريخ القضاة وربطها بالطريقة نفسها بما سبق ، وبعد أن مات يشوع طلب بنو إسرائيل من الله . الخ ، ثم ألحق سفر راعوت بوصفه تذييلاً لسفر القضاة بهذه الطريقة : وفي هذه الأيام التي يحكم فيها القضاة حدثت مجاعة كبيرة على هذه الأرض ، ثم ربط بالطريقة نفسها سفر صموئيل الأول سفر راعوت ، وعندما انتهى من هذا السفر الأول انتقل إلى الثاني أيضاً بالطريقة نفسها . إذن فمجموع النصوص ، والترتيب الذي تتعاقب به الروايات يدل على أن كاتبها مؤرخ واحد له غرض محدد ، فهو يبدأ بقصة النشأة الأولى - ثم يخبرنا بعد ذلك بالترتيب المناسبة ، وفي أي الأوقات أقام موسى الشرائع وقام بتنبؤاته العديدة . وبعد ذلك يخبرنا كيف استولوا على الأرض الموعودة كما يسألهم موسى « التثنية ، الاصحاح ٧ » واستأصل أمماً كثيرة من أمام وجهك . » ثم كيف تركوا الشرائع بعد أن استولوا على الأرض « التثنية ٣١ : ١٦ » :

« وقال الرب لموسى إنك مضطجع مع آبائك ، وان هذا الشعب سيقومون ويفجرون باتباع آلهة الأجنيبين في الأرض التي هم داخلوها الى ما بينهم ويتركونني وينقضون عهدي الذي قطعته معهم » . وما نتج عن ذلك من مصائب « الاصحاح نفسه الآية ١٧ » ، « فيشتد غضبي عليهم في ذلك الوقت واتركهم وأحجب وجهي عنهم ، فيصرون مأكلاً وتصيبهم شرور كثيرة وشدائد فيقولون في ذلك اليوم ، أليس لأننا آلهنا فيما بيننا أصابتنا هذه الشرور » .

فاذا أخذنا في اعتبارنا هذه الخصائص الثلاث : وحدة الغرض في جميع هذه الأسفار ، وطريقة ربطها فيما بينها ، وتأليفها بعد الحوادث المروية

بقرون عديدة ، نستنتج من ذلك ، أن مؤرخاً واحداً هو الذي كتبها ، أما من هو هذا المؤرخ ، فأننا لا نستطيع أن نحدده بوضوح . مع ذلك فإننا نرتاب أن يكون عزرا . ويقوم هذا الافتراض على أسباب وجيهة إلى حد بعيد . ذلك لأنه لما كان المؤرخ يمتد بروايته - حتى تحرير يواكين - ويضيف - أي الراوي - أنه كان جالساً طوال حياته على مائدة الملك « أي يواكين أو نبوخذ نصر - لأن المعنى غامض تماماً » فلا يمكن أن يكون الراوي سابقاً على عزرا ، ولكن الكتاب لا يذكر أحداً ازدهر في ذلك الوقت . سوى شهادة الكتاب الوحيد لعزرا (عزرا ٧ : ١٠) لأن عزرا وجه قلبه لالتماس شريعة الرب وليعمل . . الذي عكف بحماسة بالغة على دراسة شريعة الله وعرضها ، وكان كاتباً ملماً كل الالم بشرريعة موسى . إذن لا نجد شخصاً آخر سوى عزرا يمكن الاشتباه في أن يكون مؤلف هذه الأسفار . من ناحية أخرى ، يشهد سفر عزرا بأن عزرا لم يعكف بحماسة على دراسة شريعة الله فقط ، بل عكف أيضاً على عرضها (عزرا ٧ : ٦) صعد عزرا هذا من بابل ، وهو كاتب ماهر في توراة موسى التي أعطاهها الرب . . الخ .

يتبين وبوضوح من هذا العرض ، ومن النصوص التي استشهدنا بها تأييداً لوجهة النظر المطروحة ، أن البحث الذي قمنا به عن مؤلفها الحقيقي يعيننا إلى أبعد حد على فهم هذه الأسفار . والمسألة الأساسية هي أن عزرا هو المؤلف الحقيقي لهذه الأسفار ، ولم يكن آخر من صاغ الروايات المتضمنة في هذه الأسفار . وأنه لم يفعل أكثر من أنه جمع روايات موجودة عند كتّاب متعددين ، وفي بعض الأحيان ، كان يقتصر على نسخها ، ونقلها على هذا النحو دون فحصها أو ترتيبها . وهكذا ، فنقرأ الآية قبل الأخيرة في سفر الملوك القصة بكاملها بالألفاظ . نفسها المستخدمة ، فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة الغاية : مثلاً : نقرأ في سفر الملوك الثاني (٢٠ : ١٨) قد قلت لكن ليس إلا كلام شفتين ، بضمير المخاطب ، وقرأ في أشعيا (٥ : ٣٦) قد قلت ليس سورتمكم واقتداركم على الحرب إلا كلام شفتين . مثل آخر : نقرأ في الآية (٢٢) وإن قلت لي ، في صيغة الجمع ، وفي نص أشعيا في صيغة المفرد ، وفي نص أشعيا ، لا نجد هذه الكلمات التي في الآية (٣٢) من الأصحاح المذكور أرض خبز وكروم ، أرض زيت وعسل وعيشوا ولا تموتوا ، هناك إذن صياغات مختلفة لا يدري الإنسان أيها يختار .

وهذه الاستثناءات لا يمكن أن نستنتج منها سوى وجود قراءات مختلفة لرواية أشعيا تجمع بعضها مع بعض، من ناحية أخرى، نجد أن الاصحاح الأخير من سفر الملوك هذا متضمن في الاصحاح الأخير من ارميا الآيات (٣٩ : ٤٠) . كذلك، نجد الاصحاح (٧) من سفر صموئيل الثاني مكرراً في سفر الأخبار الأول (الاصحاح ١٧) : يقص سفر صموئيل الثاني ضيق داوود ببيته القديم ودعوته ناتان ليستشير الرب في بناء بيت جديد، وهي الرواية نفسها في سفر أخبار الأيام الأول الاصحاح (١٧) . مع ذلك، فإن الألفاظ تختلف في فقرات متعددة بطريقة تدعو للدهشة مثلاً نقرأ في صموئيل الثاني (٧ : ٦) اني لم أسكن بيتاً . . بل كنت أسير في خباء وفي مسكن ، ونقرأ في سفر أخبار الأيام (١٧ : ٥) ولكنني كنت من خيمة الى خيمة ومن مظلة الى مظلة . وذلك بتغيير بعض الكلمات ، مثل آخر : نقرأ في الآية (١٠) من الاصحاح نفسه في صموئيل الثاني : (وعرسته) وفي أخبار الأيام الأول (الآية ٩) (وحطمته) .

وهناك اختلافات أخرى كثيرة أشد خطورة يمكن أن يلاحظ وجودها بقراءة واحدة من لم يصل إلى حد كبير من العماء أو الغباء - إلى حد يتعين معه الاعتراف بأن هذين الاصحاحين مأخوذان من صيغتين مختلفتين لقصة ناتان - وهو نبي عاصر داوود وارتبط به ، يقال إنه من أصل كهنوتي ييوس ، وأنه انضم مع الغزاة بعد الاستيلاء على اورشليم . أخيراً نجد أن شجرة نسب ملوك أدوميا كما وردت في «التكوين» الاصحاح ٣٦ ابتداءً من الآية (٣١) موجودة بالألفاظ نفسها في سفر الأخبار الأول (الاصحاح الأول) وإن كان من المؤكد أن مؤلف هذا السفر الأخير أخذ روايته من مؤرخين آخرين ، لا من الأسفار الاثني عشر التي تنسب إلى عزرا . فلا شك إذن أننا لو كنا لا نزال نملك كتابات المؤرخين لتحققنا من ذلك الأمر بسهولة ، لكن ، لما كانت هذه الكتابات مفقودة فلا يبقى أمامنا إلا أن نفحص الروايات نفسها من حيث ترتيبها وتسلسلها وطريقة تكرارها مع بعض التغييرات ، ثم اختلافها في حساب السنين ، وهذا ما يسمح لنا بالحكم على بقية الأمور .

فلنفحص بعضاً من هذه الروايات الرئيسية ، نبدؤها بهذه القصة التي تدور حول يهوذا وتامار ، والتي يبدؤها الراوي في التكوين (الاصحاح ٣٨)

هكذا : « وكان في ذلك الوقت أن يهوذا انفرد عن إخوته » وواضح أن الوقت المذكور هنا ، يتعلق بوقت آخر تحدث عنه قبل ذلك ، وليس هو في وجه التحديد الوقت الذي تحدث عنه سفر التكوين قبل ذلك مباشرة ، والواقع ، أنه منذ نزول يوسف مصر لأول مرة ، حتى ذهاب يعقوب مع جميع أفراد عائلته إلى هذا البلد ، لا نستطيع أن نعد أكثر من اثنتين وعشرين سنة فقد كان عمر يوسف سبعة عشر عاماً عندما باعه إخوته ، وكان عمره ثلاثين عاماً عندما أخرجه فرعون من السجن ، فإذا أضفنا إلى هذه السنين الثلاث عشرة سبع سنين من الرخاء ، وستين من المجاعة ، يكون المجموع اثنتين وعشرين سنة ، ومع ذلك لا يمكن أن يتصور أحد حدوث كل هذه الأشياء في مثل هذا الوقت القصير : أعني أن يصبح يهوذا أباً لثلاثة أطفال على التوالي من المرأة الوحيدة التي تزوجها ، وأن يتزوج أكبر هؤلاء الثلاثة تamar عند بلوغه سن الزواج ، وأن تتزوج تamar من جديد بعد موت الابن الثاني ، وبعد موته هو الآخر ، أي بعد هاتين الزيجتين ، وهاتين الميتين ، يعاشر يهوذا زوجة أبنائه تamar دون أن يعرف من تكون ، ثم يولد له طفلان توأمين يصبح أحدهما أباً في هذا الوقت القصير ذاته .

ولما كان من المستحيل وقوع هذه الحوادث كلها في هذا الوقت القصير الذي يشير إليه «التكوين» وجب إرجاعها إلى وقت آخر سبق أن تحدث عنه سفر آخر . ومن ثم فلا بد أن عزرا نقل هذه القصة بسهولة وأدخلها في النص دون فحص . ولا يقتصر الحال على هذا الاصحاح فقط ، بل إن هذا ينطبق على كل قصة يوسف ويعقوب ، التي ينبغي الاعتراف بأنها استخلصت ونقلت من عدد من المؤرخين ، بدليل وجود اختلافات بين أجزاءها المتعددة ، ففي الاصحاح (٤٧) يروى في «التكوين» أن يعقوب عندما أتى به يوسف لليجي فرعون لأول مرة ، كان عمره يومئذ مائة وثلاثين عاماً ، فإذا طرحنا اثنين وعشرين عاماً قضاها حزناً على فقدانه يوسف ، وسبعة عشر عاماً عمر يوسف وقت بيعه ، وسبعة أعوام خدم فيها يعقوب راحيل ، نجد أنه كان متقدماً جداً في السن ، أي كان عمره أربعة وثمانين عاماً عندما تزوج ليئة مقابل ذلك كان عمر دينا تقريباً سبعة أعوام عندما اغتصبها شكيم ، وكان عمر شمعون اثني عشر عاماً ،

وعمر لاوي أحد عشر عاماً تقريباً ، عندما خربوا هذه المدينة التي يتحدث عنها «التكوين» عن آخرها ، وقتلوا كل سكانها بالسيف .

ولسنا في حاجة هنا إلى أن نبحث كل محتويات الأسفار الخمسة ، والخلط في الأزمنة ، والتكرار المستمر للقصص نفسها مع بعض التغيرات الخطيرة أحياناً . ولا ينطبق هذا فقط على الأسفار الخمسة ، بل ينطبق أيضاً على سائر الروايات المتضمنة في الأسفار السبعة الأخرى حتى هدم المدينة ، وهي الروايات التي جمعت بالطريقة نفسها .

أما ما يتعلق بالمزامير فانها جمعت بدورها وقسمت إلى خمسة أسفار بعد إعادة بناء المعبد ، ويشهد فيلون اليهودي ، بأن المزمور (٨٨) قد كتبت وما زال الملك يواكين في السجن في بابل ، وكتب المزمور (٨٩) بعد إطلاق سراحه وما كان فيلون ليقوم بذلك أبداً ، لو لم تكن هذه الفكرة متواترة في عصره ، أو ما لم يكن قد تلقاها من الشقة .

أما أسفار الأنبياء ، وعند فحصها ، نجد أن النبوءات التي جمعت فيها قد أخذت من كتب أخرى ورتبت ترتيباً معيناً لم يكن دائماً هو الترتيب الذي سار عليه الأنبياء في أقوالهم أو في كتاباتهم . كذلك ، فإن هذه الأسفار لم تتضمن جميع النبوءات ، بل بعضها التي أمكن العثور عليها هنا وهناك . إذن ليست هذه الأسفار إلا مجرد شذرات من الأنبياء .

أما سفر أيوب ، وعن أيوب نفسه ، فقد دارت مناقشات مطولة بين الشراح في هذا الصدد ، فالبعض يظن أن موسى هو مؤلف هذا السفر ، ويعتبرون القصة كلها مثلاً للموعظة فقط ، وهذا ما يقوله بعض الأحرار في التلمود ، كما يذهب ابن ميمون في كتابه «موريخ بنوخيم» إلى مثل هذا الرأي . ويعتقد آخرون أنها قصة حقيقية ، ومن هؤلاء من يظن أن أيوب عاش في زمان يعقوب وتزوج ابنته دينا ، مقابل ذلك فإن ابن عزرا ، الذي تحدث عنه من قبل ، يؤكد في شرح له على هذا السفر أنه ترجم إلى العبرية من لغة أخرى ، وهنا نستنتج من ذلك أن غير اليهود كانت بدورهم كتب مقدسة . ويعتقد أن أيوب من غير اليهود ، وكان يتميز بقدر عظيم من الصبر . ويذكره حزقيال في الإصحاح (١٤) الآية (١٤) مع آخرين .

كذلك سفر دانيال ، فهو يحتوي على النص نفسه الذي كتبه دانيال ابتداء من الاصحاح (٨) . أما الاصحاحات السبعة الأولى « حيث ان الاصحاح الثامن هو الوحيد الذي يبدأ بضمير المتكلم . . » فلا يعلم أحد مصدرها . ولما كانت مكتوبة باللغة الكلدانية - باستثناء الاصحاح الأول - فيمكننا أن نفترض أنها أخذت من كتب الأخبار الكلدانية . ويرتبط سفر عزرا بسفر دانيال هذا على نحو يسهل معه إدراك أن كاتبها واحد استمر في كتابة تاريخ اليهود منذ وقوعهم في الأسر الأول، وهنا يمكن ربط سفر استير بسفر عزرا هذا ، لأن السياق الذي يبدأ به لا يشير إلى سفر آخر . وإذن فلا ينبغي الشك في أن مؤلف هذا السفر هو الراوي نفسه الذي كتب قصة دانيال وقصة عزرا ، وكذلك سفر نحميا ، لأنه يسمى أيضاً بالسفر الثاني لعزرا .

كما أن من يعتقدون أن التوراة على ما هي عليه الآن ، رسالة من الله بعث بها من السماء إلى البشر ، لن يصرخوا قائلين : إن كلام الله مزيف ومنقوص ومحرّف ، وإننا لا نملك منه إلا شذرات، وإن الميثاق الذي يشهد بعقد الله عهداً مع اليهود قد فقد . والحقيقة أن نصوص الأنبياء والحواريين نفسها هي التي تشهد أكثر مما يشهد العقل نفسه ، بأن كلام الله الأبدي وعهده والدين الحق مسطور على نحو إلهي في قلب الانسان، وهذا هو الميثاق الحقيقي ، الذي طبعه الله بغاتمه ، أي بفكرته ، وكأنه طبعه بصورة لألوهيته . ففي المبدأ أعطى الدين لليهود في صورة قانون مكتوب لأنهم كانوا وقتئذٍ أشبه بالأطفال . لكن موسى وأرميا ، تنبأ فيما بعد ، بأن زماناً سيأتي يسطر الله فيه الشريعة في قلوبهم . إذن فاليهود وحدهم ، هم الذين كان عليهم أن يكافحوا من أجل قانون مكتوب على ألواح ، أما من كانوا يملكونه مدوناً في قلوبهم فلم يكن عليهم أن يفعلوا شيئاً من هذا .

ومن المعتقد أنه ينبغي أن يعرف المعنى الذي ينظر فيه إلى الكتاب على أنه مقدس وإلهي . فعندما يوصف شيء لا يكون هو الله نفسه ، بأنه كلام الله ، فإن المقصود بذلك على وجه الدقة، هذا القانون الالهي ، أي هذا الدين الشامل . ويمكن الرجوع في هذا الموضوع إلى اشعيا (١٠: ١٠٠ الخ) اسمعوا كلمة الرب

باحكام سدوم ، اصغوا إلى شريعة إلهنايا شعب عمورة • ما فائدتي من كثرة ذبائحكم - ١٦ - فاغتسلوا وتطهروا وأزيلوا شر أعمالكم من أمام عيني وكفوا عن الاساءة - ١٧ - تعلموا الاحسان والتمسوا الانصاف ، أغثوا المظلوم ، وأنصفوا اليتيم ، وحاموا عن الأرملة • حيث تعلم الطريقة الصحيحة للحياة ، التي لا تتكون من طقوس ، بل من إحسان وصدق ، وحيث يسميها النبي كلام الله وشريعته دون تمييز • وكذلك تستخدم الكلمة مجازياً لكي تدل على نظام الطبيعة نفسه ، وعلى الفور « لانهما يعتمدان على الأمر الأزلي للطبيعة الالهية ويصدران عنه » ، ولكي تدل بوجه خاص على ذلك الجزء من نظام الطبيعة الذي تنبأ به الأنبياء ، وذلك لأنهم لم يكونوا يدركون الأشياء المستقبلية بعلمها الطبيعية ، بل بوصفها قرارات وأوامر إلهية ، وتستعمل الكلمة أيضاً للدلالة على كل أمر نبوي ، بقدر ما يكون قد أدركه بقدرته التي يتفرد بها ، أو بهبة النبوة • بذلك ندرك بسهولة بأي معنى يجب أن نتصور الله وهو المنزل للتوراة • هذا المعنى هو أن التوراة تعلمنا الدين الصحيح ، لا أن الله أراد أن يعطي البشر عدداً معيناً من الكتب المقدسة • كذلك ، لو كان لدينا عدد أقل من أسفار العهد القديم أو الجديد ، لما أدى ذلك إلى حرماننا من شيء من كلام الله ، مثلما لا يمكن أن يؤدي ضياع كتب أخرى كثيرة إلى حرماننا من أي شيء فيه مثل سفر الشريعة ، هذا فضلاً عن وجود أسباب أخرى تؤيد ذلك •

١ - لم تدون أسفار العهدين القديم والجديد بتفويض خاص في عصر واحد ، يسري على كل الأزمان ، بل جاء تدوينها مصادفة ، وقصد بها أناس معينون ، ودونت بحيث تلائم مقتضيات العصر والتكوين الشخصي لهؤلاء الناس ، وهذا ما تدل عليه رسالات الأنبياء الذين أرسلوا نذيراً لكفار عصرهم ، وكذلك رسائل الحواريين •

٢ - تختلف معرفة الكتاب وفكر الأنبياء عن فهم فكر الله أي الحقيقة ، وينطبق ذلك على الروايات والمعجزات • وعلى العكس من ذلك ، لا تنطبق هذه التفرقة على الفقرات التي تتحدث عن الدين الصحيح والفضيلة الحقة •

٣ - تم اختيار أسفار العهد القديم من بين أسفار كثيرة أخرى ، تم جمعها وأقرها مجلس الفريسيين ، وكذلك ، قبلت أسفار العهد الجديد من المجموعة المقننة بقرار بعض المجمع الكنسية التي رفضت في الوقت نفسه أسفاراً أخرى كثيرة بوصفها منعدمة القيمة ، مع أن كثيراً من الناس كانوا يقدسونها .

٤ - لم يكتب الحواريون بوصفهم أنبياء بل بوصفهم فقهاء ، واختاروا أسهل الطرق لتعليم التلاميذ الذين يودون تكوينهم ، وبالتالي ، فإن رسائلهم تتضمن أشياء كثيرة يمكن الاستغناء عنها ، دون أن يلحق ذلك ضرراً بالدين .

٥ - أخيراً ، هناك أربعة أناجيل في العهد الجديد ، ومن منا يستطيع أن يعتقد أن الله أراد أن يقص سيرة المسيح ، وأن يبلغه للبشر أربع مرات ؟ لا شك أنه توجد في كل انجيل أشياء معينة لا توجد في غيرها مع ذلك لا ينبغي أن نستنتج من ذلك أنه من الضروري معرفة كل ما يرويه كتاب الأناجيل الأربعة .

كلمة أخيرة ، أختتم بها هذا الموضوع ، أن الايمان الشامل ، أي المعتقدات الأساسية ، يجب أن تتجه إلى مبدأ واحد : هو أن هناك موجوداً أسمى يحب العدل والاحسان ، يلزم الجميع طاعته ، حتى يتم لهم الخلاص ، ويتعين عليهم عبادته ، بممارسة العدل والاحسان ، ونستطيع أن نحدد باقي المبادئ وهي :

١ - يوجه إله واحد أي موجود أسمى ، خير ورحيم على نحو مطلق ، أي أنه بعبارة أخرى نموذج للحياة الحقة ، فمن لا يعرفه ولا يؤمن بوجوده لا يستطيع طاعته أو الاعتراف به حكماً .

٢ - الله واحد لا شريك له ، وهو أمر لا يمكن أن يشك عاقل في أنه ضروري ضرورة مطلقة ، لكي يكون الله معبوداً أسمى للخشوع والاجلال والمحبة ، إذ لا ينشأ هذا الخشوع وهذا الاجلال وهذه المحبة إلا من رفعة هذا الموجود وسموه على غيره من الموجودات .

٣ - الله حاضر في كل مكان ، ويرى كل شيء ، فلو اعتقدنا أن شيئاً يخفى عليه ، أو

لم نعلم أنه يرى كل شيء لتطرق إلينا الشك في كمال عدله الذي يخضع له كل شيء .

٤ - لله الحق والقدرة المطلقة على كل شيء ، وهو لا يجبر على أفعاله ، بل يفعل

ما يشاء بمشيئة مطلقة ، وبفضل ينفرد به ، وعلى حين طاعته واجبة على

الجميع ، فإنه لا يطيع أحداً .

٥ - عبادة الله وطاعته لا تكون إلا في العدل والاحسان .

٦ - لا يتم الخلاص إلا لمن يطبقون هذه القاعدة في الحياة ، أي لمن يطيعون الله ، على حين

يهلك من يعيشون تحت سيطرة اللذات . ولو لم يعتقد الناس بذلك اعتقاداً جازماً

لما كان هناك ما يدعوهم إلى إثارة طاعة الله على السعي وراء اللذات .

٧ - أخيراً يغفر الله للتائبين خطاياهم ، وكل بني آدم خطأؤون . وهذا أمر إذا لم

ينسلكم به يئس الجميع من خلاصهم ، ولم يجدوا سبباً للإيمان بالرحمة الإلهية .

أما من يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله برحمته وبفضله الذي وسع كل شيء يغفر

ذنوب البشر حقاً ، ومن ثم من يشتق حب الله ، يجبه الله .

